القوة والضعف

فى الشعر الحديث

ان علماء العروض والقوافى لم يصيبوا فى تعريفهم الشعر بأنه كلام مقفى وموزن ، وهل كل كلام مقفى وموزون يُعدُّ شعراً ؟ وهل الشعر على هذا التعبير يؤدّى رسالة الشاعر للناس قوية المناحى كما يجب ، دقيقة التعبير كما ينبغى ـ الشاعر ذى الاحساس الرقيق والحب الصادق والخيال الواسع ، الشاعر الذى يحلق فى جو ليس فى مقدور العامة أن تحلق فيه ؟!

ان الشعر إن لم يكن الباعث على قوله نفس حقرها الوجدان ، وأملى عليها الخاطر ما جاس فيه وتلاطم داخل طياته من خواطر لم يجد الى احتجازها سبيلا ، فانسابت تلك الخواطر آخذة طريقها الى المسامع كما ينساب الجدول بالماء العذب النمير لا يعوق سيره عائق ولا يكدره مكدر ـ أقول إن لم يكن الباعث على قول الشعر احساس صادق لا أثر فيه لتكلف أو تعمل فهو كما يقول علماء العروض والقوافى « كلام مقفى وموزون » .

واذا كان قول العقاد :

والشعرُ من نفس الرحمن مقتبسٌ والشاعرُ الفذّ بين الناس رحمنُ

أصاب كبد الحقيقة لتعريف الشعر والشعراء ، فانا لم نر فى هذا الزمان على الخصوص ـ مع استثناء بعض الشعراء المطبوعين الموهوبين ـ الا شياطين اقتبسوا أشعارهم من شياطين الهاماتهم ـ لا من الرحمن ـ وقد سخرت منهم فألهمتهم كل غث مرذول يغاير صور الحياة تمام المغايرة ويباينها كل المباينة . ولعل السبب فى ذلك انهم يقلدون القدماء ويبكون معهم الاطلال حيث لا اطلال تبعث البكاء فى عهد العمران هذا ،

ويجدون معهم العيس حيث أصبحت العيس فى هذا العصر ـ عصر البخار والمدنية تعرض على أنظار الجمهور فى جنائن الحيوانات بقصد التسلية .

ولعل سبباً آخر هو من أهم العوامل التى تجعل الشاعر مقلداً أكثر منه مبتكراً أو مبتدعاً وتجعل على شعره مسحة من التكلف الممقوت الذى يغضّ من قيمته . وهذا السبب هو الجمهور ، لأن بعضاً من الشعراء يجهد نفسه ليرضى الجمهور بكل ما أوتى من قوة ، إذ أن الجمهور لا يقبل على شىء أو يستحسنه حتى يكون وفق هواه ، وارضاء الجمهور وتنفيذ رغباته يفقدان الشاعر منزلته الممتازة وينزلانه من مرتبة الخاصة الى مرتبة العامة . والشاعر الذى يربأ بنفسه أن ينزل مع الجمهور فى حلبة واحدة هو وحده الصادق الذى يعبر عن شعور صادق ، وهو وحده المضمون لشعره البقاء لأن للأيام دورة تميز فى أثنائها الخبيث من الطيب ويذهب فى خلالها الزبد جفاء ويمكث ما ينفع الناس فى الأرض .

ان المتنبي لم يمت ولا ضمه قبر ولا حواه رغام وله قريض تغنى به الزمان وأعجب به الأدباء جيلاً بعد جيل . أجل : ان المتنبي لم يمت كما مات كثير من الشعراء الذين نبه ذكرهم فى أول عهد ظهورهم ثم أبرم عليهم الزمان حكمه العادل بالموت الحقيقى الذى لا حياة بعده ولا نهوض حتى لم يعد لهم ذكر لدينا كما نذكر المتنبي وأضرابه من شعراء العربية كأبى تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز وغيرهم . فلو كان الشعر قولاً مقفى وموزوناً كما يقولون ، ولو كان من ذكرنا أسماءهم وما لم نذكرها من أعلام الشعر ينزعون الى تقليد من سبقهم من الشعراء لما بقى لنا من شعرهم شيئاً نفتن فى تقليده ومجاراته . واذا بقى شىء منه فما أظن أننا نجد حافزاً يحفزنا الى تقليده ومجاراته لافتقاره الى صدق فى اللهجة . وقوة فى المعنى .

على أن للشعر الذى يمتاز بالقوة فى أدائه وجودة التعبير فى الفاظه ، وبروح من الفن يرفرف من بين معانيه ، قوة سحرية خفية هى أشبه بالمغناطيس تجعل الشاعر يتأثر بمعانيه بمجرد تلاوته له الى حد بعيد وينجذب نحوه انجذاباً لا يشعر به الا حين ينظم معانى ذلك الشعر العبقرى الذى تلاه فى شعره . ويجدر بنا فى هذه الحالة — حالة تأثر الشاعر بغيره — أن نقتصد فى اللوم فلا نوجه اليه الا بقدر ينبهه من غفوته ويردع الذين يتعمدون التقليد ، وأن نلتمس له بعض العذر لأن توافق الخواطر فى الأفكار كثير الحدوث بين الناس . ونقدر أن نقول إنه لا جديد

فى المعانى مطلقاً ، لأن القدماء — سامحهم الله — لم يتركوا جديداً لمجدد . فما علينا والحالة هذه الا أن نلتمس التجديد من صور الحياة نفسها ، لأن الحياة ليست كالماء الراكد ولكنها فى تجدد مستمر ، ولن تزال الى أن تبدل الأرض غير الأرض — خصوصاً فى هذا القرن الحالى — القرن العشرين — القطار . الطيارة . الغواصة . اللاسلكى . السينما . الحاكى . الخ . كل هذه صور من الحياة جديدة لم تكن معروفة عند أجدادنا القدماء ، ولم يسمعوا بها إلاّ فى حكايات ألف ليلة وليلة التى ابتكرها خيالُ جبّار فى ذلك الزمن . وهذه الصورة الجديدة قديرة أن تحرك شاعرية مَن ينشد التجديد ويعشقه — ويجب على كل شاعر أن ينشد التجديد ويعشقه — فيتدفّق من فيه الشعر الساحر النفيس ، ومن لم تحرك شاعريته هذه الصور المرئية الواضحة التى تمثل روح العصر الحاضر أصدق تمثيل وتبرزه للعيان أوضح بروز ، فلا إخال شيطان إلهامه إلا من الذين قال الله لهم بغضب ونقمة « اخسأوا فيها ولا تكلمون » !

أما ان الشاعر يتأثر ببيئته تأثراً لا يخفى على فَطِن حينما يقرأ شيئاً من شعر ذلك الشاعر فهذا أمر بديهى يعرفه كل مولع بدراسة الشعر ونقده ، إذ أن مَثَل البيئة فى ذلك كمثل الجوّ وتأثيره على الجسم إذا كان الجوّ وخياً مشبعاً برطوبة مفرطة أو بسموم لافح تبعاً لتقلبات الجو ، وبالعكس يظهر نفعه على الجسم إذا كان الجو معتدلاً رقيق الهواء .

وثمت طوارىء أخرى غير البيئة تجعل الشاعر ينهج منهجاً آخر فى شعره كان من الممكن أن لا ينهجه اذا لم تحدث هذه الطوارىء المفاجئة : فمثلاً بماذا كان يتشكل منهجُ جميل بثينة أو كُثَيِّر عزة أو قيس بن الملّوح فى أشعارهم لو لم يروا محبوباتهم فى حياتهم ويفتتنوا بهن حباً وظلوا طيلة أيام مكوثهم أحياء لا يتيمهم رشأ يريش سهامه الى صميم القلب فما يخطىء المرمى ؟ أو كيف كان يبدو منهج المعرى فى شعره لو لم يصب بالجدرى الذى أعماه فى صغره ؟ كيف كان يبدو منهجه فى أشعاره لو عاش بصيراً يتمتع بثروة واسعة ؟ حقاً ان للطوارىء أوفرُ نصيب فى تغيير حياة المرء وتوجيهها الى غير الوجهة التى كان يجب أن تتّجه اليها لو لم تحدث هذه الطوارىء ، والانسان كما وصفه الله تعالى — وقوله الصدق — « إذا مسّه الشر جزوعاً وإذا مسّه الخير منوعاً » .

قال العتابي : (١) من قرض شعراً ، أو وضع كتاباً فقد استهدف للخصوم واستشرف للألسن ، إلا عند من نظر فيه بعين العدل وحكم بغير الهوى ، وقليلٌ ما هم .

يجب على الأديب الناقد أن يكون منصفاً لمنقوده حتى ولو كان من أعدائه الألدّاء بأن يذكر الحسنات بجانب السيئات والفضائل بجانب الرذائل ، وبالاختصار بأن يضع كل شيء في نصابه حتى يتبين للناس الحق من الباطل والخطأ من الصواب . أما الناقد الذي يقوده الهوى ويستولى على حجاه الحنق والحسد والموجدة على منقوده فيتغاضى عن ذكر حسناته ويبالغ في تحديد سيئاته فان نقده لا يلبث حتى يعود وبالاً عليه أو شراً من الوبال . ولا يلحق المنقود من ذلك ضرر لأن الحقيقة مهما طال اخفاؤها ستكشفها الأيام وتظهر للناس واضحة جلية كفلق الصبح .

ان الشاعر الذي تكتنفه زعازع من النقد الذي لا غرض له سوى الهدم لكالصخرة الجاثمة وسط شلال ضيق المسرب قوى المجرى عميق الغور . فإما أن تقتلع هذه الصخرة الأمواج وتخلى منها المكان إذا لم يكن لها أصل متغلغل في أعماق الثرى ، وإما أن تصمد في بسالة لصفع الأمواج المتواصل وهجومها الذي لا يعرف الانحدار اذا كان لهذه الصخرة أساس غائر الى طبقات الثرى السفلى . وصخرة الشاعر ذات الأساس المكين التي يغالب بها تيّار النقد الجارف هي اليقين والوثوق بالنفس هما وحدهما اللذان يخلقان من نفس الشاعر نفساً تشعّ نوراً وتتقد حيوية وتتوثب طموحاً الى أعلا درجات الفن . وهما وحدهما اللذان يبلغان بالشاعر حد الاجادة ويجعلان على شعره طابع الخلود بما يسبغانه عليه من صدق اللهجة وتوضيح الغرض في صراحة ، والصراحة هي من الأمور المهمة التي يجب أن تكون شيمة في الشاعر الحرّ - الحرّ في أفكاره ونظراته في الحياة ، بله الحر في معتقداته .

لكنّ النقد الأدبي الذي يقصد به الى خدمة الأدب والفن لوجه الأدب والفن شأناً غير شأن النقد المغرض ، لأنه يدل الشاعر على مواطن الضعف والركاكة في

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه الجزء الأول صحيفة ٣

شعره بأدلة محسوسة وبراهين معقولة يقبلها المنطق ولا تأباها الحقيقة . والشاعر أمام هـذه الحقائق الواضحة — اذا لم يكن مغالطاً — لا يسعه الا أن يتسامى بشعره فى المستقبل الى أعلا درجات الجودة والاتقان . ولهذا النوع من النقد البرىء فضل على الشعراء لا يجحد . وحبذا لو قام النقاد بما يفرضه عليهم واجبهم نحو خدمة الأدب على العموم والشعر على الخصوص ، وحبذا لو قابل المنقودون الانتقاد البرىء بالارتياح وحسن الظن ، إذاً لنبضت فى الشعر الحـديث روحٌ من الحياة الخالدة أكثر مما هى نابضة الآن .

ويجب أن لا ننسى — ونحن نتكلم عن أسباب قوة الشعر الحديث وضعفه — ما للسياسة اذا ما انسابت أفاعيها وتفاقت بلاويها من تعويق للشاعر عن أن يؤدى رسالته للناس كاملة غير منقوصة ، ويبلغهم إياها بوضوح كما يجب أن يبلغ الرسالة للناس بوضوح الرسول الصادق الأمين . وما عهـد شوقى « شاعر القصر » عنا ببعيد ، فلو لم تقيده السياسة بقيودها وتكبله بأغلالها وتستغله لخدمة أغراضها زمناً ليس بالقليل لخلف لنا تراثاً ادبياً لا تخلق جدّته الأيام بل هو يخلق جـدة الأيام ويشمخ على الأحقاب شموخ المدلّ المتصلف . على ان الله أراد بالأدب خيراً فخرج شوقى أخيراً من محبسه ، وتحرر من قيود السياسة وأوضاعها ، وانطلق البلبل يغرد بصوت مرخم رقصت له نفوس أهل الفن طرباً ، وانتشت الأرواح من خمرته الالـهية المعتقة ، فهى لا تزال ترقص وترقص ما دام فى الكأس بقية من خمر .

ان بعضاً من الشعراء يفخر ويتشدق لأنه قال الشعر وهو ابن عشر سنين . ولو علم ما جناه على الأدب لكفّ عن فخره ولعلم أنه بافتخاره هـذا يذم نفسه ويطلع الناس على مقدار جهله التام بالشعر ، لأنه يجب على الشاعر قبـل أن يقول الشعر أن يدرس الشعر القديم والحديث درساً وافياً تحت ضوء المعرفة ، وأن يكون ناقداً حصيفاً نافذ البصيرة يعرف مواطن الضعف والقوة فى القصيد من اللمحة الأولى .

وأحجى بالأديب الناشىء الذى تتوق نفسه لقرض الشعر أن يحفظ نخبة صالحة من أشعار القدماء والمحدثين حتى يستطيع أن يكوّن له مادة غزيرة من الألفاظ والتعابير ، وحتى يستطيع أن يخرج للناس شعراً جيداً رصيناً قوى الديباجة قوى المعانى واضح التعابير ، وأنا إذ أقول يجب على الأديب الناشىء أن يحفظ نخبة صالحة من الشعر حتى يكون غنياً بالألفاظ والتعابير لا أعنى بذلك أن يكون مقلداً

بحيث اذا قال قصيدة أطلّت من خلال سطورها رؤوس شتى لشعراء في أزمان متفاوتة كأنهم قد دعوا الى وليمة ! لا ، لست أعنى هذا ، ولكنى أعنى أن تكون للشاعر ملكة قوية وفى مقدرة فائقة لقول الشعر ، حتى يستطيع بفضل هذه الملكة وتلك المقدرة أن يعبر بسهولة عما جاش فى نفسه من خواطر وما اضطرب فيها من خوالج وما احتدم فيها من انفعالات نفسية يستحيل كبتها فى قرارة الضمير ، وأخيراً أن يكون معبراً عن روح عصره أدقّ تعبير وممثلاً له أصدق تمثيل .

ان التخلى عن شعر الأمداح فى هذا الزمن - أكثر من ذى قبل - من أكبر العوامل على تقوية الشعر الحديث وإن كنا نودّ له قوة أكثر من قوته الحالية ، لأنه متى سقط عامل واحد من عوامل الضعف سيحدث فراغاً لعامل من عوامل القوة ليحل فيه ، وحبذ لو تخلى شعراؤنا الأمجاد عن ضروب شعر المناسبات الأخرى لتتم القوة وتتحد المنعة .

إن الشعر لا يصلح لتسجيل الحادثات ، كلا ولا لتدوين الاجتماعات وما يدور فيها من مناسبات . الشعر فرقان المحبين وأسمى لغة يعبر بها العاشقان عن مكنون ضمائرهم . الشعر لغة العواطف المتسامية عن أدران الرذائل الأرضية المبتذلة ولا يجوز أن يُستخدم فى مثل هذه الأغراض .

ولكى يعاد للشعر العربى سابق مجده التليد كما كان أيام خلفاء بنى العباس - بشرط أن يكون مطبوعاً بطابع العصر الحاضر - يجب أن يكون الشعراء على تفاهم تام بينهم ، حتى يتكاتفوا جميعاً على تقوية أساس الشعر ورفع بنيانه على أمتن ما يجب أن يرفع البنيان على الأساس المتين ، فلا نعود نسمع بصديق قاطع صديقه وجعله مضغة الأفواه فى النوادى والمجتمعات متناسياً المودة والاخاء ، أو عن تلميذ عقّ أستاذه وأنكر فضله عليه وتكوينه له .

وبعد ، فهل نرجو من شعرائنا أن يستوحوا الهاماتهم من صور الحياة الراهنة يدفعهم الى ذلك فيض من الوجدان واملاء من الخاطر وصادق من الاحساس !؟ هذا ما نتمنى تحقيقه فى القريب العاجل م ؟

(الجزيرة أبا - السودان) بشرى السيد أمين

الفلسفة والصوفية فى الشعر

(بقية المنشور على الصفحة ٢٨٨)

فصاغَ آدمَ منها وهو مُمتعضٌ بعدَ الأمَرَّيْنِ مِنْ عُدْمٍ وإعياءْ
وراحَ يخلقُ حوّاءً فما سمحَتْ بقيّةٌ منها فى خلقِ حوّاءْ
فاضطرَّ يخلقها مِنْ آدمٍ فإذا مُرَكَّبُ النقصِ فيها لهْوُ بَنَّاءْ

ولا يقول الجاهل بفنون الشعر إن صاحب هذه المقطوعة من الملحدين، فهو انما يصوّر بنفسية الطفل مبدأ الخليقة الانسانية وسر عجز المرأة. والعقل الباطن الذى سمع عن « مركب النقص » أبى إلا أن يصوّر لنا هذا التصوير الطريف المفسّر. فكيف نلوم هذا العقل الشعرى الطفل بدل أن نتذوق فنه باسمين ؟ وهل لكاتب هذه السطور أن يسخط على طفله الصغير وقد عرضَ عليه رسمَ الخالق جل شأنه فى صورة معلم جالس فوق السحب يحاكم الأولاد الأشقياء ويعاقبهم ؟ وهل أخطأ ناظر مدرسته فى الحرص على هذه الصورة الفنية فى فكرتها وتفصيلها ؟ إن ما يصوغه العقل الباطن من فن لا يجوز للعقل الواعى أن يعترض عليه، بل له فقط أن يتأمله ويتذوّقه، وله أن يضحك منه إذا شاء، وأما السخط عليه فأمر لا يجوز وخصوصاً عند من ينتسبون الى الآداب والفنون ويدّعون معرفة علم النفس واحترام الفلسفة والتصوّف.

أبو القاسم الشابى

فى فجر التاسع من شهر أكتوبر الماضى فاضت روحُ الشاعر التونسىّ المبدع أبى القاسم الشابى أحد أعضائنا النابهين بعد مرضٍ طويلٍ هدّ قواه ولم تنفع فى درئه العنايةُ والعلاجُ. وقد جاءنا نعيه (مع كتاب منه قبيل وفاته) وهذا العدد على وشك الصدور، فلم نستطع أن نوفيه حقه من الرثاء والتقدير، وحسبنا الآن أن نعزّى الأسرة الشابية وأدباءَ تونس بل وأدباء العربية عامةً فى هذا المصاب بشاعر من صفوة الشعراء المجددين قلّ أن يُعوّض.